أهل اللـــغـــة ولـــغـــة الأهـــــل

قراءة لنص الفارابي في تقييم لغات العرب

أ.د. حنا حداد (*)

يتعاور اللغويون والمهتمون برواية اللغة وتدارس قضاياها، نصاً يتصل بتقييم لغات القبائل العربية، ساقته المظان منسوباً لمن يدعى " أبو نصر الفارابي" ، هذه صورته:

" كانت قريش أجود العرب انتقاء للأفصح من الألفاظ، وأسهلها على اللسان عند النطق، وأحسنها مسموعاً، وأبينها إبانةً عما في النفس. والذين عنهم نقلت اللغة العربية، وبهم اقتدي، وعنهم أُخذ اللسان العربي من بين قبائل العرب، هم: قيس وتميم وأسد. فإن هؤلاء هم الذين عنهم أكثر ما أخذ ومعظمه، وعليهم اتُّكل في الغريب وفي الإعراب والتصريف. ثم هذيل وبعض كنانة وبعض الطائيين. ولم يُؤْخذ عن غيرهم من سائر قبائلهم. وبالجملة فإنه لم يُؤخذ عن حضري قط، ولا من سكان البراري ممن كان يسكن أطراف بلادهم التي تجاور سائر الأمم الذين حولهم. فإنَّه لم يؤخذ: لا من لخم، ولا من جذام، ولا من مصر والقبط، ولا من قضاعة، ولا من غسان، ولا من إياد. فإن هؤلاء كانوا مجاورين لأهل الشام ومخالطين لهم، وكان أكثرهم نصارى يقرءون في صلواتهم بغير العربية.

ولا من تغلب والنمر. فإنَّهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية، وكانوا أيضاً نصارى.

ولا من بكر.لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس ومخالطين لهم.

ولا من عبد القيس. لأنهم كانوا سكان البحرين، مخالطين للهند والفرس.

ولا من أزد عمان. لمخالطتهم للهند والفرس.

ولا من أهل اليمن أصلاً. لمخالطتهم للهند والحبشة، ولولادة الحبشة فيهم ، ثم لمخالطتهم للفرس بعد أن لحق هؤلاء أنهم فيهم.

ولا من بني حنيفة، وسكان اليمامة.

ولا من ثقيف، وسكان الطائف. لمخالطتهم تجارة الأمم المقيمين عندهم.

ولا من حاضرة الحجاز. لأن الذين نقلوا اللغة صادفوهم حين ابتدءوا ينقلون لغة العرب، قد خالطوا غيرهم من الأمم، وفسدت ألسنتهم.

والذي نقل اللغة واللسان العربي عن هؤلاء وأثبتها في كتاب وصيَّرها علماً وصناعةً،هم أهل الكوفة والبصرة فقط بين أمصار العرب. وكانت صنائع هؤلاء التي بها يعيشون الرعاية والصيد واللصوصية. وكانوا أقواهم نفوساً، وأقساهم قلوباً، وأشدهم توحشاً وسَبُعيَّةً، وأمْنعهم جانباً، وأشدّهم حميّةً، وأحبهم لأن يغلبوا وأن لا يُغلبوا، وأعسرهم (كذا) انقياداً للملوك، وأجفاهم أخلاقاً، وأقلهم احتمالاً للضيم والذلة" (أ.هـ).

ولأن هذا النص هو الأكمل في موضوعه من حيث التصريح بأسماء القبائل العربية التي يحتج بلغات بعضها، وبيان الأسباب التي حالت دون الاحتجاج بلغات بعضها

(*) جامعة اليرموك- المملكة الأردنية الهاشميـــــة

الآخر، فقد كثر الاستشهاد به، وتنوعت طرائق الاستفادة منه والاتكاء عليه، على الرغم مما يشو به من الاضطراب في بعض ألفاظه، ومما يعتريه من الشك في صحة نسبته. وقبل أن نلج إلى النص لمناقشة ما تضمّنه من أحكام، لا بد من معرفة صاحبه والكشف عن شخصيته، لنرى إلى أي مدى يمكن الاطمئنان إليه، والوثوق بما جاء به. فمن هو "أبو نصر الفارابي" هذا؟وما مدى صحة نسبة هذا النص إليه؟

نقول بداءة: ظل كتابا السيوطي: "الاقتراح في علم أصول النحو" و "المزهر في علوم اللغة" المصدرين الوحيدين لهذا النص حتى نُشر الجزء المتبقي من كتاب " تذكرة النحاة" لأبي حيان الأندلسي [1]، وقد كان يظن أن هذا الكتاب من تراث أبي حيان المفقود [2]. فكان من حسن الطالع أن يتضمن هذا الجزء المتبقي من الكتاب نص أبي نصر الفارابي كاملاً، فحق من بعد أن تكون إشارة الباحثين إلى " تذكرة النحاة" لأبي حيان الأندلسي (654-745هـ) بوصفه أقدم مصنف احتفظ بهذا النص ونقله إلينا، لا إلى مصنفات السيوطي (ت 911هـ) التي وضعت بعد "تذكرة النحاة" بأكثر من قرن ونصف من الزمان.

وللحقيقة، فإن الإشارة إلى وجود هذا النص عند أبي حيان كانت معروفة للباحثين من عهد. ولكن، في مصنفين آخرين من مصنفاته هما : "التذييل والتكميل في شرح التسهيل" و "ارتشاف الضرب من لسان العرب". وهما مصنفان ما زال كل منهما في حكم المخطوط من تراث العربية [3]. أما الإشارة إليه في كتاب "التذييل والتكميل " فقد جاءت في كلام السيوطي الذي أثبته بعد أن ساق نص الفارابي السابق حين قال : "ونقل ذلك – أي النص– أبو حيان في شرح التسهيل معترضاً على ابن مالك حيث عني في كتبه بنقل لغة لخم وخزاعة وقضاعة وغيرهم، وقال: "ليس ذلك من عادة أئمة هذا الشأن" [4] وأما عن وجود النص في "إرتشاف الضرب" فقد جاءت الإشارة إليه في المقدمة [5] التي وضعها الدكتور أحمد مختار عمر محقق "ديوان الأدب" لأبي إبراهيم إسحق بن إبراهيم الفارابي. وبهذا يكون أبو حيان قد حفظ النص وساقه إلينا في ثلاثة من مصنفاته المشهورة وهي :"تذكرة النحاة" و "شرح التسهيل" و "ارتشاف الضرب".

ولمّا لم نقف على هذا النص عند عالم آخر قبل أبي حيان ولا عند غيره ممن جاءوا بعده حتى عصر السيوطي، فقد صار جائزاً أن يكون السيوطي قد نقل هذا النص عن واحد من مصنفات أبي حيان السالفة الذكر، ولا سيما إذا عرفنا أن النصين عند الرجلين متشابهان تقريباً، إلا في بعض الألفاظ التي لا تعني كبير شيء. والذي يؤكد هذا الذي نذهب إليه، أن السيوطي كان معجباً بأبي حيان إلى أبعد حد، متأثراً بفكره إلى أقصى غاية. فقد كان يلخص آراءه وينقل عنه ويتابعه ويتفق معه حتى صارت مصنفاته معرضاً لآراء أبي حيان ومستودعاً لفكره. وحتى صارت كتبه مصدراً رئيساً من المصادر التي احتفظت لنا بنصوص كثيرة من تراث أبي حيان:الموجود والمفقود. وإلى هذا يشير السيوطي [6] بقوله:"وله من التصانيف ...التذييل والتكميل في شرح التسهيل، مطول الارتشاف ومختصره. ولم يؤلف في العربية أعظم من هذين الكتابين ولا أجمع ولا أحصى للخلاف والأحوال. وعليهما اعتمدت في كتابي "جمع الجوامع".

ولهذا السبب، يسقط عندنا الاتهام الذي وجهه للسيوطي الدكتور محسن مهدي محقق كتاب "الحروف" لأبي نصر الفارابي عندما قال [7]: "يقول السيوطي: وقال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بالألفاظ

والحروف... والظاهر أن ما يأتي بعد هذه العبارة هو تلخيص ما قاله الفارابي مع أشياء أضافها السيوطي من عنده " فقد ثبت أن السيوطي كان أميناً على النص، صادقاً فيما نقله، على الرغم من إغفاله ذكر اسم المصدر الذي استقى النص منه، وليس ذا من عادته.

وبعد، فمن هو "أبو نصر الفارابي " صاحب هذا النص؟

أورد السيوطي هذا النص في كتابيه مُصَدَّراً بالكنية " أبو نصر" والنسبة لـــ "فاراب" فقال [8]: قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه... إلخ.

وقد جاء النص عند أبي حيان من قبل، مصدّراً بالكنية ذاتها والاسم الصريح والنسبة لـــ " فاراب" أيضاً،فقال [9]: " وجد بخط أبي نصر محمد بن محمد الفارابي كتاب صَنَعه وسمّاه كتاب الألفاظ والحروف ...إلخ".فالفارابي الذي ذكره السيوطي لا نعرف إلا كنيته. والفارابي الذي عناه أبو حيان هو أبو نصر محمد بن محمد أكبر فلاسفة العرب والمسلمين والذي عرف في التاريخ باسم "المعلم الثاني". وهو كذلك ، من عناه كل من صلاح الدين الصفدي [10] وابن أبي أصيبعة [11]. ولكن، هل يكفي هذا التصريح من هؤلاء العلماء بكنية الرجل واسمه ونسبته، حتى يتأكد عزو هذا النص إليه، وحتى نطرح ما يشكك بهذا العزو ؟.

الحقيقة، أن ثمة أموراً تستوقف الباحث وهو يحاول الوصول إلى رأي يطمئن إليه في هذه المسالة. فمصدر النص كما ذكر الذين ساقوه ، كان كتاباً باسم "الألفاظ والحروف". وقد ثبت أن للفارابي الفيلسوف كتابين، أحدهما باسم "الحروف" والثاني باسم "الألفاظ المستعملة في المنطق" و لا أثر للنص كما وصل إلينا في أي من الكتابين، باستثناء ما جاء من قول الفارابي في كتاب "الحروف "[12]: "وأنت تتبين ذلك متى تأملت أمر العرب في هذه الأشياء فإن فيهم سكان البراري وسكان الأمصار. وأكثر ما تشاغلوا بذلك من سنة تسعين إلى سنة مائتين . وكان الذي تولى ذلك من بين أمصارهم أهل الكوفة والبصرة من أرض العراق فتعلموا لغتهم والفصيح منها من سكان البراري دون أهل الحضر. ثم من سكان البراري من كان في أوسط بلادهم ومن أشدهم توحشاً وجفاء وأبعدهم إذعاناً وانقياداً وهم: قيس وتميم وأسد وطيء ثم هذيل فإن هؤلاء هم معظم من نقل عنهم لسان العرب والباقون فلم يؤخذ عنهم شيء لأنهم كانوا في أطراف بلادهم مخالطين لغيرهم من الأمم مطبوعين على سرعة انقياد ألسنتهم لألفاظ سائر الأمم المطيفة بهم من الحبشة والهند والفرس والسريانيين وأهل الشام وأهل مصر".

وهذا النص الذي تضمنه كتاب "الحروف" لأبي نصر الفارابي، يحمل في ثناياه- كما نلاحظ – روح النص موضوع البحث، ولكنه لا يتطابق معه تطابقاً تاماً أو قريباً منه، بحيث يجوز أن نقول إنه صورة له. أو إنه منقول عنه بتصرف. وعليه، صار من المؤكد أن النص المنسوب للفارابي ليس من أي الكتابين اللذين نشرا له. فهل كان وهماً من أبي حيان وتابعه السيوطي عليه عندما نسبا النص للرجل،وصرحا باسم مصدره الأم؟ أم أن ثمة كتاباً آخر لأبي نصر الفارابي غير هذين الكتابين يعرف باسم "الألفاظ والحروف"" ولكننا لا نعرف عنه شيئاً؟.

الذي يؤكده الدكتور محسن مهدي [13] محقق كتابي "الحروف" و "الألفاظ المستعملة في المنطق "أن كلا منهما كتاب مستقل بذاته. وأن كتاب "الألفاظ" يبحث في مواضيع لا يبحث فيها كتاب "الحروف". وأن كتاب "الحروف" يبحث في مواضيع لا يبحث فيها كتاب

"الألفاظ". وأن الأمر قد التبس على الذين عملوا فهارس كتب الفارابي دون الاطلاع على نصوص هذه الكتب، فجمعوا بين العنوانين".

أما افتراض وجود كتاب ثالث مستقل لأبي نصر الفارابي يحمل اسم "الألفاظ والحروف" غير هذين الكتابين المنشورين، فهو افتراض واهٍ لا يستند إلى ما يشجع على الأخذ به.

إذن، فالنص المنسوب لأبي نصر الفارابي الفيلسوف، ليس من أحد كتابيه المنشورين ولا هو من كتاب آخر له – فيما نظن- وليس هناك ما يقطع بصحة نسبته للرجل . فالشك قائم، ولسنا ملزمين من بعد، على الأخذ بقول كل من أبي حيان والسيوطي، كما أننا لسنا مجبرين على متابعتهما في هذا الوهم. فهل ثمة فارابي آخر يمكن أن يكون صاحب هذا النص؟ ومن هو؟

إن بعض الذين تعرضوا للنص وشغلتهم مادته بشكل ما، قد نسبوا كتاب "الألفاظ والحروف" الذي تضمن هذا النص لفارابي آخر هو الفارابي اللغوي أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم صاحب "ديوان الأدب" لا للفارابي أبي نصر محمد بن محمد الفيلسوف ومن هؤلاء ابن الطيب الفاسي المغربي(ت1170هـ) شارح كتاب "الاقتراح في علم أصول النحو"للسيوطي حيث قال[14]:"قوله: قال أبو نصر...إلخ هو إسحق ابن إبراهيم صاحب ديوان الأدب في اللغة خال الجوهري صاحب الصحاح" وقد وافقه في هذا الدكتور إبراهيم أنيس [15]. كما أن الدكتور أحمد مختار عمر محقق "ديوان الأدب" قد استبعد أن يكون الفارابي الفيلسوف هو مؤلف كتاب "الألفاظ والحروف" الذي اشتمل على النص، فنراه يقول[16]: "ليس من المعقول أن يقوم بهذه الدراسة اللغوية الواعية غير لغوي متخصص "ولهذا فقد ارتضى أن يكون الفارابي اللغوي أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم صاحب "ديوان الأدب" هو صاحب كتاب " الألفاظ والحروف" وهو صاحب النص المعني، فقال [17]: "ولذا، فنحن نرجح أن يكون هذا الكتاب للفارابي اللغوي وتكون نسبته للفيلسوف من قبيل خلط المؤرخين في مؤلفاتهما نتيجة لاشتراكهما في الاسم (كذا) وإذن فنحن نضيف "الألفاظ والحروف" إلى مؤلفات الفارابي"، ويقصد بهذا الفارابي اللغوي.

أما الدكتور صبحي الصالح فقد نسب الكتاب والنص معه للغوي المشهور أبي نصر إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب "الصحاح" فقال في تعريفه بأبي نصر الفارابي [18]: " هو اللغوي المشهور، صاحب "الصحاح" المطبوع في أربعة مجلدات، واسمه إسماعيل بن حماد المعروف بالجوهري، أصله من فاراب وإليه ينسب أحياناً فيقال: (الفارابي)... ونقل السيوطي من كتابه "الألفاظ والحروف" في المزهر والاقتراح" . وإلى هذا أيضاً ذهب الدكتور علي عبد الواحد وافي [19].

ثم كانت هناك طائفة من الباحثين والدارسين المعاصرين الذين ساقوا النص في مصنفاتهم واتكأوا عليه في بعض دراساتهم دون أن يعنيهم من يكون صاحبه من الفارابيين الثلاثة:

أهو الفارابي أبو نصر محمد بن محمد الفيلسوف المعروف بـــ" المعلم الثاني".

أم هو الفارابي أبو نصر إسماعيل بن حماد الجوهري صاحب " الصحاح".

أم هو الفارابي أبو إبراهيم إسحق بن إبراهيم صاحب "ديوان الأدب".

وقد عرفنا من هؤلاء الباحثين:

* الشيخ محمد الطنطاوي في كتابه "نشأة النحو وتاريخ

أشهر النحاة".

* الدكتور رمضان عبد التواب في كتابه "بحوث ومقالات في اللغة".
* الشيخ محمد علي الدسوقي في كتابه "تهذيب الألفاظ العامية".
* المستشرق أوغست فيشر في كتابه "المعجم اللغوي التاريخي".
* الشيخ عبد الوهاب حمودة في كتابه "القراءات واللهجات".
*الدكتور عبد الراجحي في كتابه "اللهجات العربية في القراءات القرآنية"
*الأستاذ سعيد الأفغاني في كتابه "في أصول النحو"
* الدكتور مهدي المخزومي في كتابه "مدرسة الكوفة"
* الدكتور أحمد علم الدين الجندي في كتابه "اللهجات العربية في التراث".
* الدكتورة بنت الشاطئ في كتابها "لغتنا والحياة".
* الدكتور محمود فهمي حجازي في كتابه "علم اللغة العربية".
*الأستاذ محمد حسين آل ياسين في كتابه : "الدراسات اللغوية عند العرب".
*الدكتور عبد الحميد الشلقاني في كتابه: "رواية اللغة".
*الدكتور إبراهيم السامرائي في كتابه : "المدارس النحوية، أسطورة وواقع".
*الدكتور محمد عيد في كتابيه: "الرواية والاستشهاد باللغة" و "المستوى اللغوي للفصحى واللهجات وللنثر والشعر".

والذي نذهب إليه، أن كتاب "الألفاظ والحروف "هذا ومعه النص المعني، ليس لواحد من الفارابيين الثلاثة المعروفين لدينا لأنه مدفوع عنهم بما يلي:

أولاً: هو مدفوع عن الفارابي الفيلسوف بثلاثة أمور:

أ- أكد الذين نقلوا النص وحفظوه لنا، أنه من كتاب واحد يحمل اسم "الألفاظ والحروف".وليس للفارابي الفيلسوف - كما أثبت التحقيق — كتاب مستقل بهذا الاسم.

ب- قال الذين نقلوا النص إنه في أول كتاب "الألفاظ والحروف". والذي عثرنا عليه من الكلام القريب في معناه العام من النص المعني جاء في وسط كتاب "الحروف" وليس في أوله.

ج- لا أثر للنص كما أوردته المظان في أي من مصنفات الفارابي الفيلسوف.

ثانياً: هو مدفوع عن كل من الفارابي أبي إبراهيم إسحق بن إبراهيم صاحب "ديوان العرب" والفارابي أبي نصر إسماعيل ابن حماد صاحب "الصحاح" بما يلي:

أ- إن النص كما حفظته المظان ونقلته إلينا، منسوب لفارابي كنيته "أبو نصر" وليست هذه كنية إسحق بن إبراهيم ولكن كنيته "أبو إبراهيم".

ب-إن النص نقل إلينا منسوباً لرجل اشتهر بـــ "الفارابي" وليست هذه شهرة إسماعيل بن حماد التي عرف بها. ولكن شهرته "الجوهري".

ج- لم تذكر مصادر ترجمة الرجلين والتعريف بهما أن لأي منهما كتاباً باسم "الحروف" أو آخر باسم "الألفاظ والحروف" حتى نظن أن النص قد يكون من أحد الكتابين، ثم تثبت نسبته لواحد منهما.

ولهذا كله، فإننا نعتقد أن الكتاب الموسوم بـــ: "الألفاظ والحروف" وفيه النص المعني هو لفارابي آخر

أغفلت ذكره المظان، وضنّت بأخباره المصادر، ولم يلتفت إليه المترجمون وكتاب السير فجهلناه . وما أكثر من جهلناهم من العلماء (!!)

عود إلى النص:

يتطابق نص الفارابي بهيئته التي ذكرها السيوطي في كتابيه: "المزهر" و " الاقتراح "مع النص كما ورد في كتاب "تذكرة النحاة" لأبي حيان تطابقاً لا يشوبه إلا بعض التصحيف والتحريف الذي نعتقد أنه من صُنْع النُسّاخ على مر الأيام. أما الخلاف فيه عند الرجلين فهو في تقديمه. فقد قدمه أبو حيان بقوله: "وجد بخط أبي نصر محمد بن محمد الفارابي كتاب صنعه وسماه "الألفاظ والحروف" وكان أوله: كانت قريش... الخ. وقدمه السيوطي في الكتابين بقوله: "قال أبو نصر الفارابي في أول كتابه المسمى بـ "الألفاظ والحروف": كانت قريش ... إلخ. ولهذا فإني أعتقد أن السيوطي قد نقل هذا النص عن أحد مصنفات أبي حيان ولم يتصرف فيه. وفيما يلي ثبت باختلاف رواية النص في مصادره الثلاثة

الاقتراح	المزهر	تذكرة النحاة
*انتقاداً للأفصح	انتقاء للأفصح	انتقاء للأفصح
*وإبانة عما في النفس	وأبينها إبانة عما في النفس	وأبينها إبانة عما في النفس
*بلادهم التي تجاور سائر الأمم	بلادهم المجاورة لسائر الأمم	بلادهم التي تجاور سائر الأمم
*ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل مصر والقبط	ولامن جذام مجاورتهم أهل مصر والقبط	ولا من جذام ولا من مصر والقبط
*ولا من إياد فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام	ولامن إياد مجاورتهم أهل الشام	ولا من إياد فإن هؤلاء كانوا مجاورين لأهل الشام ومخالطين لهم .
* وأكثرهم نصارى يقرءون بغير العربية	وأكثرهم نصارى يقرءون بالعبرانية.	وأكثرهم نصارى يقرءون في صلواتهم بغير العربية
* ولا من تغلب ولا النمر	ولا من تغلب ولا اليمن.	ولا من تغلب والنمر
* مجاورين لليونانية	مجاورين لليونان	مجاورين لليونانية وكانوا أيضاً نصارى
* ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس	ولا من بكر لمجاورتهم للقبط والفرس	ولا من بكر لأنهم كانوا مجاورين للنبط و الفرس ومخالطين لهم.
* ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند.	ولا من عبد القيس وأزد عمان لأنهم كانوا بالبحرين مخالطين لهم.	ولا من عبد القيس لأنهم كانوا سكان البحرين مخالطين للهند.
ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم.	ولا من أهل اليمن لمخالطتهم للهند والحبشة.	ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ثم لمخالطتهم للفرس بعد أن لحق هؤلاء أنهم فيهم.
ولا من ثقيف وسكان الطائف	ولا من ثقيف وأهل الطائف	ولا من ثقيف وسكان الطائف
لمخالطتهم تجار الأمم	لمخالطتهم تجار اليمن	لمخالطتهم تجار الأمم
وأشدهم توحشاً		وأشدهم توحشاً و سبعيّة.

وبالنظر لأسماء القبائل التي تضمنها هذا النص، يظهر لنا أن جل ما نقله الرواة من اللغة وما ضمنوه مصنفاتهم منها كان عن : تميم وقيس وأسد وبعض كنانة

وبعض الطائيين. أما بقية قبائل العرب فقد، أكد النص أن الرواة قد أحجمت عن نقل لغاتها وكانت الحجة في ذلك أنهم عندما بدءوا ينقلون اللغة ويشافهون أهلها وجدوا لغات هذه القبائل فاسدة لأن جرثومة اللحن كانت قد تسربت إلى ألسنة أصحابها. ولهذا لم يأخذوا:

* لا من لخم ولا من جذام ولا من مصر والقبط [20](كذا) ولا من قضاعة ولا من غسان ولا من إياد فإن هؤلاء كانوا مجاورين لأهل الشام ومخالطين لهم وكانوا أكثرهم نصارى يقرءون في صلواتهم بغير العربية.

* ولا من تغلب والنمر. فإنهم كانوا بالجزيرة مجاورين لليونانية وكانوا أيضاً نصارى.

* و لا من بكر. لأنهم كانوا مجاورين للنبط والفرس، ومخالطين لهم.

* ولامن عبد القيس، لأنهم كانو سكان البحرين، مخالطين للهند والفرس.

* ولامن أزد عمان لمخالطتهم للهند والفرس.

* ولا من أهل اليمن أصلاً لمخالطتهم للهند والحبشة ولولادة الحبشة فيهم ثم لمخالطتهم للفرس بعد أن لحق هؤلاء أنهم فيهم.

* ولا من بني حنيفة وسكان اليمامة [21].

* ولا من ثقيف وسكان الطائف، لمخالطتهم تجار الأمم المقيمين عندهم.

وبهذا النهج، يكون علماء اللغة ورواتها — إن صح ما جاء في هذا النص- قد ضيقوا الخناق، وسدوا الفرج حين استثنوا لغات هذه القبائل المشهورة، وحصروا العربية السليمة في قبائل بأعينها فنقلوا عنها وهجروا ما عداها.

والذي نراه، أن هذا النص لا يمثل رأي علماء العربية بإجماع، ولا يعبر عما كانوا يأخذون به ويعملون بهدي منه وهم يجوبون الفيافي ويشافهون الأعراب لنقل اللغة وتدوينها. ودليلنا، هذا الاضطراب الواضح في آرائهم والاختلاف البين في تقييمهم لفصاحة القبائل وسلامة لغاتهم. فهذا بعضهم يقول[22]:

إن قريشاً أفصح العرب ألسنة وأصفاهم لغة.

وبعضهم الآخر يقول [23]: الخزاعيون من أعرب الناس.

وآخر يقول [24]: إن جرما فصحاء العرب.

وآخر يقول [25]:أفصح العرب نصر قعين أو قعين نصر.

ومنهم من يقول([26]:أفصح العرب قريش وثقيف وهذيل.

كما قالوا [27]: أفصح الناس عليا تميم وسفلى قيس.

وقالوا [28]: أفصح الناس عجز هوازن.

وغير ذلك من الأقوال المتضاربة والآراء المتناقضة ، فضلاً عما نجده في معاجمهم الكبيرة ومصنفاتهم اللغوية المتنوعة من الإعجاب بلغات هذه القبائل التي استثناها النص والنقل عنها والاحتجاج بشعر شعرائها.

ولو تتبعنا المعايير الواردة في نص الفارابي السابق، والتي حُكم بموجبها على فساد لغات كثير من القبائل العربية المشهورة لوجدناها ثلاثة:

الأول: معيار التعبد بغير العربية.

الثاني: معيار الاختلاط بأمم غير عربية.

الثالث: معيار المجاورة لأمم غير عربية.

ولكن، هل كانت هذه المعايير منصفة للقبائل العربية؟ وهل كانت حقا دستور عمل العلماء في جمع اللغة والحكم على أصحابها؟

الذي يستفاد من الطرائق غير المنظمة التي جمعت بها

اللغة، ومن موقف بعض العلماء المسبق من هذه القبائل، أن الحكم بهذه المعايير لم يكن منصفاً وأن الهوى والتعصب قد اختلطا مع هذه المعايير واشتركا في توجيه كثير من الأحكام المجحفة بحق لغات بعض هذه القبائل. فالتعبد بغير العربية مثلاً كان ذنباً أخذت بجريرته بعض القبائل العربية التي احتفظت بنصرانيتها بعد ظهور الإسلام إلى حين،فكان أن أحجم رواة اللغة عن الاهتمام بلغات هذه القبائل أو الالتفات إليها مثل: قضاعة وتغلب وغسان وإياد وغيرها. فان قيل: ألم تك هذه القبائل النصرانية تتعبد بغير العربية- إن صح هذا- قبل ظهور الإسلام؟ فلماذا كان شعر هذه القبائل حينذاك حجة ولغتها مبرأة من كل عيب؟ لم تكن هناك إجابة شافية.

وإذا قيل: هل يعني تعبد الإنسان في صلاته بلغة غير لغته الأمم كما هي الحال الآن عند الأتراك والفرس والباكستانيين والهنود والصينيين وغيرهم، مدعاة لفساد سلائقهم اللغوية الموروثة، ومبرراً لاضطراب ألسنتهم الأصلية؟ لا تكون هناك إجابة مقنعة.

ثم، ألم يكن من هذه القبائل التي تتعبد في صلواتها بغير العربية شعراء أفذاذ طبقت شهرتهم الآفاق وكانوا نجوماً في سماء الشعر العربي في الجاهلية والإسلام ، يحتج الناس بأشعارهم ويفسرون بها ما أشكل عليهم من غريب القرآن الكريم والحديث الشريف؟

أليس أمية بن أبي الصلت وقس بن ساعدة وأبو دؤاد الإيادي وعمرو بن كلثوم ومهلهل بن ربيعة وعدي بن الرعلاء وجابر بن حنى والأخطل والقطامي وهدبة بن الخشرم وكعب بن جعيل ويزيد بن الحكم. أليسوا هؤلاء الصوى في عالم الشعر العربي من هذه القبائل التي تتعبد في صلواتها بغير العربية؟ فلماذا لم تعد لغات قبائلهم حجة؟ ولماذا رغب الرواة عن هذه اللغات؟

إن الذي نراه أن تعبد بعض القبائل في صلواتها بغير العربية ليس مسوغاً مقنعاً لرفض لغات هذه القبائل ولا هو مدعاة لفساد ألسنتها، إذ لو كان الأمر كذلك لفسدت العربية معظمها لأن كثيراً من العرب كان إلى فترة قريبة من عصر جمع اللغة وتدوينها ممن يدينون بالنصرانية أو اليهودية ويقرءون في صلواتهم — إن صح هذا — بغير العربية.

فإذا انتقلنا إلى المعيارين الآخرين، وهما: الاختلاط بأمم غير عربية أو مجاورة هذه الأمم، وجدنا رواة اللغة في عصر جمع اللغة وتدوينها قد توقفوا عند القبائل العربية حيث صادفوها بعد الإسلام فطبقوا على لغاتها هذين المعيارين وكأن القبائل التي وجدوها وقتئذ مجاورة للنبط والفرس أو الروم والقبط أو الهند والحبشة، كانت مجاورة لها منذ أن كانت على هذه البسيطة. وقد نسوا أن هذه القبائل كانت ذات يوم في أماكن أخرى غير التي وجدوها فيها. فالقبيلة من هذه القبائل في أدنى الجزيرة العربية يوماً وفي أقصاها يوماً آخر وفي وسطها يوماً ثالثاً. كما تناسى هؤلاء الرواة أن ما حلت به هذه القبيلة من الأرض حينا، كان يوماً سكنا لغيرها وسيكون يوماً مرابع لأخرى من بعدها. فقد حدثنا الإخباريون أن تهامة مع الجبال المطلة عليها من أقصى الشمال الغربي للجزيرة العربية إلى أقصى جنوبها كانت موطناً للغالبية العظمى من القبائل العربية، ولكن الحروب الدامية المملة التي كانت تستعر في هذه المنطقة أدت إلى رحيل كثير من القبائل عنها، وتوزعها على أنحاء متفرقة من الجزيرة العربية. فمنها من اتجه إلى الشمال فسكن العراق وبادية الشام وجاور بذلك الروم والفرس. ومنها من اتجه إلى الشرق فسكن البحرين وعمان فجاور بذلك الهند. ومنها من اتجه إلى الجنوب ليستقر ثانية في اليمن التي كان فيها فجاور بذلك الحبشة.

كما روى الإخباريون أن عبد القيس كانوا في الأصل بتهامة ثم ارتحلوا عنها بسبب الحروب التي وقعت بين أبناء ربيعة فذهبوا إلى البحرين وتغلبوا على من كان قد سكن فيها قبلهم من إياد وبكر بن وائل وتميم [29]. وإن تغلب تركت ديارها في الجزيرة العربية وارتحلت إلى الشمال فسكنت العراق وبادية الشام واتصلت بحكم منازلها بالغساسنة والمناذرة وبالروم والفرس [30] وإن كلبا كانت مساكنها السماوة ولا يخاط بطوقها في السماوة احد [31] ولكنها في الجاهلية كانت تسكن دومة الجندل وتبوك من أطراف الشام [32] وإن العقيليين كانت مساكنهم بالبحرين في كثير من قبائل العرب، وغير ذلك. وفضلاً عن هذه المعايير المتهافته التي ذكرها صاحب النص السابق، نجده يقرر أن اللغويين لم ينقلوا اللغة من تغلب أو النمر لأنهم كما يقول: "كانوا بالجزيرة مجاورين لليونان (أو اليونانية)". ونسأل،، أي يونان؟ وأية يونانية، تلك التي قصدها؟ وأية جزيرة هي التي أراد؟

إن كان صاحب النص يقصد بـــ "الجزيرة" جزيرة العرب، فإن جغرافية جزيرة العرب وحدودها ليست واضحة المعالم عنده. فعلى الرغم من أن الجغرافيين العرب لم يتفقوا على تعريف بعينه لجزيرتهم وما يحدها من جهاتها الأربع [33] إلا أن المستفاد مما أجمعوا عليه، أن هذه الجزيرة هي ذلك الجزء المحدود شمالاً بالعراق وبلاد الشام والمحاط بالمياه من جهاته الثلاث الباقية. ولم نجد من المؤرخين من قال إن الجنس اليوناني كان له حضور في هذا الجزء من العالم الإسلامي بالكم الذي يخشى من تأثيره على من يخالطه أو يسكن إلى جواره من القبائل العربية.

أما إذا قصد صاحب النص بـــ "الجزيرة" ما بين دجلة والفرات والموصل من أراضي العراق [34] — وهذا ما نعتقد أنه قصد إليه — فقد كان حقاً لليونانية حضور في هذه المنطقة . ولكن من سكن هذه المنطقة من القبائل العربية لم يرحل اللغويون إليها لنقل لغاتها وتدوينها، إذ إن رحلة هؤلاء العلماء انطلقت من المصرين جنوباً وغرباً إلى حيث بوادي العرب وفيافيهم الموحشة، لا إلى شمال العراق وبلاد الشام حيث كانت تسكن بعض القبائل العربية.وفي الحالين يكون كلام الفارابي بهذا الخصوص ضرباً من اللغو والفساد.

والذي يؤيد ما نذهب إليه من فساد هذه المعايير التي تضمنها نص الفارابي السابق، هو أن الرحلة إلى الجزيرة بغية نقل اللغة وتدوينها وحفظها لم تبدأ إلا في زمن متأخر من ظهور الإسلام وانتشاره، وهو زمن كان الدين الجديد قد انتشر في جزيرة العرب وتعداها إلى ما جاورها من الأمصار. وقد صاحب هذا الانتشار ثورة على كثير من العادات والتقاليد، وتغيير في كثير من الأعراف. فقد أخذ نشاط القبائل يتوجه مع هذا الدين الجديد إلى ما هو أبعد من إقامة الأحلاف ، وحضور الأسواق التجارية، والارتحال إلى مواطن أكثر أمناً، والتنافس على المواطن الأكثر خصباً، وإذكاء الحروب الطاحنة لأهون الأسباب. بدأ توجه هذه القبائل إلى الفتح والجهاد وإلى نشر الدعوة والدين الجديد بعد أن دخل الناس في دين الله أفواجاً،فاختلط الحابل بالنابل والعربي بالعجمي ولم يعد مقبولاً أن يفاخر القيسي اليمني ولا أن ينافر الطائي العبسي فالكل سواسية ، والكل أخوة. ولهذا أصبح من الصعب على هذا الخليط من الناس أن يحافظ الواحد منهم على لغته بمعزل عن لغات إخوانه الذين يعيش بينهم. وأصبح من غير المعقول ألا تنسجم هذه المجموعة البشرية المختلفة الألوان والمشارب في نمط لغوي واحد يفهمه الجميع ويتحدثون به.

وهكذا، كان ظهور الإسلام وانتشاره سبباً في هذا التفاعل بين القبائل والخلط الحاصل بينها ومبرراً رئيساً لتداخل اللغات واللهجات بعضها ببعض. فالأسدي الفصيح أصبح في الإسلام أخاً للزنجي الذي لا يفصح، والتميمي الأفصح صار رفيقاً لمن يرتضخ لكنة أعجمية والكل سواء فهذا يحادث هذا بلغته. والآخر يسامر الآخر بلهجته، لا يشغلهم إلا ما اجتمعوا عليه من الإيمان بهذا الدين والرغبة الصادقة في نشره. فكيف بعد هذا يكون الحكم على انعزال هذه القبيلة أو ذلك الفرع؟ وكيف بعد هذا يمكن تصور أن بعض القبائل العربية ظلت بعد قرن وأكثر من ظهور الإسلام وانتشاره متقوقعة على نفسها، معزولة عمن سواها من القبائل العربية الأخرى والأجناس الأجنبية المجاورة.

وبعد، فالذي نذهب إليه أن نص الفارابي السابق في تقييم لغات القبائل العربية والحكم عليها من حيث السلامة والضعف أو الصحة والفساد لا يستند إلى معايير تقييمية صحيحة. ولا يقوم على أسس علمية مقنعة. فإذا أضفنا إلى هاتين النتيجتين ما أظهره النص من تعصب لبعض القبائل وتجن على بعضها الآخر، أصبح من غير الجائز الاطمئنان إلى هذا النص والوثوق بمجمل ما جاء فيه، بل أصبح واجباً ألا يلتفت إليه، وألا يوظف في أي دراسة.

الهوامش

1- حقق الدكتور عفيف عبد الرحمن هذا الجزء المتبقي من كتاب "تذكرة النحاة" لأبي حيان عن نسخة فريدة من محفوظات الخزانة العامة بالرباط ونشرته مؤسسة الرسالة في بيروت 1986م.

2- قالت الدكتورة خديجة الحديثي: كتاب "التذكرة" لأبي حيان ألفه في النحو وقد سمّاه بعضهم "التذكرة في العربية" ولا نعرف شيئاً عن هذا الكتاب لأنه من كتب أبي حيان المفقودة.(انظر: أبو حيان النحوي للدكتورة خديجة الحديثي ص 166).

3- قلنا: "في حكم المخطوط من تراث العربية" لأنه لم ينشر من الكتابين إلا أجزاء متفرقة. وإن الذي نشر منها هو في الحقيقة بحاجة إلى تحقيق.

4- الاقتراح ص 20.

5- ديوان الأدب ص 8 نقلاً عن النسخة الخطية من ارتشاف الضرب ص 849. ونقول: في المكتبات الآن كتاب بعنوان "ارتشاف الضرب من لسان العرب" لأبي حيان الأندلسي حققه وعلق عليه الدكتور مصطفى أحمد النمّاس، الأستاذ بكلية اللغة العربية بالقاهرة وقامت بنشره مطبعة المدني بالقاهرة سنة 1989م ويقع الكتاب في ثلاثة أجزاء كبيرة. وقد بحثت عن نص الفارابي في هذا الكتاب فلم أعثر له على أثر ، لذا فإننا أمام احتمالين:

الأول: أن الدكتور أحمد مختار عمر قد وهم في إشارته السابقة لوجود النص في "ارتشاف الضرب"

الثاني: أن الكتاب الذي بين أيدينا الآن إن هو إلا مختصر "ارتشاف الضرب" وليس الكتاب كاملا. وهذا ما نذهب إليه لأن "ارتشاف الضرب" كتاب كبير الحجم يعدل أضعاف الكتاب المنشور وقد رأيته مخطوطاً في دار الكتب المصرية ذات يوم واستفدت منه. كما يؤكد ما نذهب إليه، أن "ارتشاف الضرب" - كما ذكر معظم الذين ترجموا لأبي حيان -كتابان- : مطول ومختصر.

6- بغية الوعاة 282/1.

7- مقدمة كتاب الحروف ص 40.

8- الاقتراح ص 19 والمزهر 211/1.

9- تذكرة النحاة ص 573.

10- مقدمة ديوان الأدب ص 9، نقلاً عن "الوافي بالوفيات".

11- عيون الأنباء في طبقات الأطباء ص 608.

12- كتاب الحروف ص 174.

13- كتاب الحروف / المقدمة ص 35.

14- فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح ص 260.

15- انظر: مقدمة ديوان الأدب ص8.

16- المصدر السابق ص9.

17- المصدر السابق.

18- دراسات في فقه اللغة ص 112/هامش.

19- فقه اللغة ص 165.

20-في الرواية خبل، والصحيح ما جاء في الاقتراح: لا من لخم ولا من جذام فإنهم كانوا مجاورين لأهل الشام ... الخ.

21- لم يحدد الفارابي السبب في عدم الأخذ عن بني حنيفة وسكان اليمامة (؟ !).

22- الصاحبي ص33.

23- اللسان "عنق" 104/12.

24- الفائق في غريب الحديث 459/2.

25- اللسان "قعن" 225/17..

26- مقدمة ابن خلدون ص 49.

27- المزهر 483/2.

28- المصدر نفسه.

29- تاريخ العرب 300/4.

30- المصدر السابق 306/4.

31- صفة جزيرة العرب ص 129.

32- قلائد الجمان ص 46.

33- انظر في الخلاف على تحديد جزيرة العرب: المعارف ص 566 وقلائد الجمان ص20.

34- المعارف ص 566.

المصادر والمراجع

* أبو حيان النحوي للدكتورة خديجة الحديثي، بغداد 1966م.
* الاقتراح في علم أصول النحو لجلال الدين السيوطي، دار المعارف، حلب (د.ت).
* الألفاظ المستعملة في المنطق للفارابي، تحقيق: د. محسن مهدي، بيروت 1968م.
* إنباه الرواة للقفطي : تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم. منشورات دار الكتب المصرية بالقاهرة 1970-1973م.
* بغية الوعاة في طبقات اللغويين والنحاة لجلال الدين السيوطي، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، ط 1، مطبعة الحلبي بالقاهرة 1964-1965م.
* تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي، مطبوعات المجمع العلمي العراقي 1953-1958م.
* تذكرة النحاة لأبي حيان الأندلسي، تحقيق الدكتور عفيف عبد الرحمن، بيروت 1986م.
* الحروف = كتاب الحروف لأبي نصر الفارابي، تحقيق محسن مهدي، دار المشرق في بيروت 1970م.
* دراسات في فقه اللغة للدكتور صبحي الصالح، ط 6، منشورات دار العلم للملايين بيروت 1976م.
* ديوان الأدب لأبي إبراهيم إسحق بن إبراهيم الفارابي، تحقيق: الدكتور أحمد مختار عمر، منشورات مجمع اللغة العربية، القاهرة 1974م.
* الصاحبي لأحمد بن فارس، تحقيق: السيد أحمد صقر، منشورات عيسى البابي الحلبي بالقاهرة، طبعة مصورة (د.ت).
* صفة جزيرة العرب للهمذاني، ليدن 1384هـ.
* عيون الأنباء في طبقات الحكماء لابن أبي أصيبعة ، تحقيق الدكتور نزار رضى، بيروت 1965م.
*الفائق في غريب الحديث للزمخشري ، تحقيق: علي محمد بجاوي ومحمد أبو الفضل إبراهيم ، ط1، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة 1945م.
* فقه اللغة للدكتور علي عبد الواحد وافي، منشورات لجنة البيان العربي، ط5، القاهرة 1962م.
* فيض نشر الانشراح من روض طي الاقتراح لابن الطيب الفاسي المغربي، رسالة ماجستير غير منشورة، إعداد: برهان محمد عبد القادر حسين، نسخة في مكتبتي الخاصة.
* قلائد الجمان في التعريف بقبائل عرب الزمان لأبي العباس القلقشندي ، تحقيق : إبراهيم الأبياري ، منشورات دار الكتب الحديثة بالقاهرة 1963م.
* لسان العرب لابن منظور الإفريقي ، مطبعة بولاق بالقاهرة 1308هـ.
* المزهر في علوم اللغة لجلال الدين السيوطي، تحقيق:محمد أبو الفضل إبراهيم وآخرين، مطبعة الحلبي بالقاهرة 1958م.
* المعارف لابن قتيبة الدينوري، تحقيق الدكتور ثروت عكاشة، ط2، منشورات دار المعارف بالقاهرة 1969م.